مجلة مدرسة الإسكندرية

عدد ٦

الحياة الرهبنية في نهاية القرن الرابع الميلادي

المُثل الرهبانية

ترجمة: بشارة طرابلسي

الحياة الرهبانية في نهاية القرن الرابع الميلادي بمصر (٣)
المُثُل الرهبانية*

ترجمة بشارة طرابلسي
beshara_tarabolsy@alexandriaschool.org

مقدمة[1]

لاحظ الزائرون، رهبان البراري المصرية، وسجّلوا سلوكهم الخارجي، ولكنّ الزائرين كانت لهم اهتمامات أخرى. لقد اهتموا أن يتعلّموا من الشيوخ المعنى الداخلي [الباطني] للحياة الرهبانيّة. وفي شهادتهم التي سجّلوها لاحقًا عن الرحلة، توجد مادة غزيرة عن الأفكار والمُثُل كما فهمها الرهبان أنفسهم. في الفصل الأول والأطول، يصف الكاتب زيارتهم [للقديس] يوحنا الأسيوطي، أحد أشهر آباء البرّية، والذي نعرف عن وجوده ومآثره من مصادر أخرى أيضًا. الفقرة طويلة، ومكتملة في ذاتها، وتنتهي بذكصولوجيّة. إنها قطعة أدبيّة مبنية بعناية لتوصّل انطباعًا [ما] أكثر من كونها سردًا بسيطًا للحقائق. إنها تحوي في داخلها التعليم الأساسي للبرّية كما فهمه الكاتب.

عند القديس يوحنا الأسيوطي

ما الذي يقوله [القديس] يوحنا الأسيوطي، ناصح الأمراء، لزائريه؟ إنه يحيّيهم باللُّطف المعهود في البرّية، ثم يجلسون للحديث. المشهد [يجري] داخل قلاّية صغيرة، على جانب تلٍّ بعيد، وهذا بلا شك سرد حرفيّ [لما جرى]، [وربما] قد جمع [الكاتب] زيارتيْن أو أكثر معًا. طلب منه الزائرون - كما كانت العادة - أن يتحدّث إليهم دون أن يُحدّدوا موضوعًا، وتحدّث [القديس] يوحنا معهم باستفاضةٍ [حديثًا] مرتّبًا بعناية عن التعليم الروحي، مبتدئًا بثلاث

* Norman Russel, *The Lives of the Desert Fathers 'The Historia Monachorum in Aegypto'* – Introduction by Benedicta Ward SLG, Cisterican Publications CS34, 1981, pp. 29-38.

[1] العناوين الجانبية من وضع المترجم.

قصص عن نساء، وانتهى بثلاثٍ عن رجال، وفيما بينهم خطاب عن الفضائل العظمى للبرّية: الاتضاع، التمييز، الواقعيّة، و"العين الواحدة *single eye* " المتّجهة نحو الله. يسرد الكاتب أولاً ثلاث قصص عن [القديس] يوحنا، يقول إنه سمعها من رهبان آخرين في المنطقة: تحكي كل منهم عن امرأة، ومعاونة [القديس] يوحنا لها. في [القصة] الأولى، زوجة أحد المحامين أرادت أن ترى [القديس] يوحنا وتطلب بركته، وقد منحها لها في حلم. في الثانية، زوجة موظف عمومي آخر، ضابط في الجيش، وضعت طفلاً بينما كان زوجها يستشير [القديس] يوحنا، واقترح الشيخ على والد [الطفل] أن يسمّوه يوحنا، وأن يُرسَل للرهبان في البرّية عند السابعة، وهو ما يذكّرنا بشدة بقصة يوحنا المعمدان، وربما فيها إشارة أيضًا على أن وجود الأطفال في البرّية كان مازال مقبولاً[٢]. القصة الثالثة عن زوجة موظف عمومي آخر فقدت بصرها، وتمّ شفاؤها بواسطة استخدام زيت كان قد باركه [القديس] يوحنا وأرسله لها. في كل حالة [من الثلاث] كانت المرأة المَعنيّة زوجة لأحد الموظفين أو الضبّاط في مصر الرومانيّة. إن النساء [الثلاث] هن من طلبن مساعدة [القديس] يوحنا وتلقَّيْنها، على الرغم من أن [القديس] يوحنا حافظ على الوضع المعتاد للراهب في عدم الاتصال المباشر بهن. إن الكاتب يشير لكل هؤلاء بوصفهم "غرباء" وأجانب، ويجعل النقيض بالفوائد الأخرى التي يعطيها [القديس] يوحنا "لمواطنيه" المصريين. لقد كان القديس متاحًا لكل من يحتاج معونته ويطلبها، سواءً أكان من مقاطعته أم لا.

القديس يوبّخ ضيوفه!

بهذه الصورة التقليديّة للقديس بين تلاميذه، وبين مواطنيه والغرباء، يأتي بنا الكاتب لقصة زيارته، هو ورفاقه الستّة، [للقديس] يوحنا. وعلى الرغم من الترحيب القلبي، فقد بدأ الشيخ بالتوبيخ الذي ذكرناه سابقًا، فقد حاول أحد [أفراد] المجموعة التظاهر - عن تواضع خاطئ - بأنه ليس شمّاسًا، وصوّب له

[٢] عن وجود الأطفال في البرّية راجع *Sayings of the Desert Fathers, Carion 2 & 3*؛ ويظهر من هذه القصة أن الأطفال كانوا يُعتبرون غواية للرهبان، وهي فكرة ستنمو بقوّة فيما بعد.

[القديس] يوحنا [خطأه بتعليمه عن] الواقعيّة الجوهريّة في البرّية، قال له: "لا تكذب، بإنكارك عطيّة المسيح"، وبتعبير آخر، فإن السيامة [الدرجات الكهنوت] ما هي إلا عطيّة، وليست حيازة شخصيّة تجعل الشخص أرفع مقامًا، وفي إنكارها كبرياء - لزعمه أنها شيء يُمتلك ومرموق، وكذلك أيضًا خداع - لتناقضه مع الحقيقة في شكلها البسيط. وعلى ما يبدو، فإنّ شدته [صرامته] لم تتوقّف عند هذا الحد، فأحد أفراد الجماعة كان [يعاني] من الحُمّى، وأخبره [القديس] يوحنا أن: "هذه الضيقة هي لخيره، وقد أتت عليه لضعف إيمانه"، وعلى الرغم من ذلك، فقد منح مساعدته للأخ [المريض] أخيرًا بإعطائه بعض الزيت ليدهن به نفسه، وهذا المزيج من العلاج والتشجيع كان فعّالاً.

استمر [القديس] يوحنا في معاملة ضيوفه بشدّة: فعلى الرغم من أنه امتدح - بشكل غير مباشر - نشاطهم في زيارة البرّية، فقد أضاف: "لا تظنوا أنكم قد فعلتم ما يكفي ... لا تثقوا بأنفسكم ... احترسوا ... لئلا تكونوا ساعين وراء فضائلنا لأجل المجد الباطل". لقد حذّرهم من القيم [الفضائل] الزائفة، والرغبة في إظهار الصلاح بدلاً من أن يكونوا صالحين، ومن سلوك زائري الأديرة، الذين في روايتهم لما عاينوه هناك، يجتذبون لأنفسهم المديح، مستخدمين الرهبان وخبرتهم عن [حياتهم]، كشيء يُغتَنم لمجدهم الخاص.

أخطار في الطريق

بهذا التطبيق الشخصي والفوري للتعاليم الرئيسيّة للبرّية، يبدأ [القديس] يوحنا حديثًا أكثر منهجيّة، واتّبع نفس الفكرة الرئيسيّة؛ أي الواقعيّة، التجرُّد من الأوهام، الجهاد المستمر طول الحياة، الجديّة والمثابرة لـ"رؤية الله" وأن يصبح الراهب "صديقًا لله"[٣]. إن هذا، وهذا فقط، هو عمل الراهب، وبينما لم يدّعِ القديس يوحنا أبدًا أن [الرهبنة] هي الدعوة المسيحيّة الوحيدة، ولكنه كان متنبّهًا للغاية إلى التجارب التي تأتي على مَنْ اختار الطريق

[3] Cf. *Life of St. Anthony*, 4.

الرهباني بسبب طرق الحياة الأخرى[٤]. لقد أخبر زائريه ثلاث قصص ليبيّن الأخطار والتجارب التي [يتعرّض لها] الراهب، وتستحق هذه القصص أن نفحصها بالتفصيل لما تقدِّمه من استبصار لمثاليات الرهبنة. الأولى [تحكي] عن راهب عاش في وحدة كاملة في مغارة، وقد عاش لسنوات بالتقاليد النسكيّة الأكثر صرامة. يقول الكاتب: "لقد أعطى برهانًا على أقوى النسكيات *proof of the strongest asceticism*"، برهان لا ادّعاءات. وقد زارته يومًا امرأة جميلة، وأغوته ليخطئ [معها]، وحثّته ليستجيب لها، وبعد ذلك رذلته بسخرية، يصفها الكاتب بأنها ضحكات الشياطين. مثل هذا الوضع لم يكن، بأي حال من الأحوال، غير معروف في البرّية[٥]، ولكن في هذه الحالة لم يستطِع الراهب أن يتوب، بل يأس وعاد إلى العالم، وبالنسبة للراوي [القديس يوحنا الأسيوطي]، كان هذا دليلاً على أن نسكه كان باطلاً منذ البداية، ولم يكن يهدف إلى الحقيقة الأساسيّة أي فقدان الاتّكال على الذات والاعتماد على رحمة الله. لقد استخدم نسكه كحيازة [إنجاز] شخصيّة لا كوسيط للنعمة، لذا فقد أخفق بالكليّة.

تقدّم القصة الثانية ـ على النقيض ـ شخصيّة رجل عاش في المدينة [العالم] "وصنع شرورًا كثيرة وخطايا شنيعة"، وإذ وخزه ضميره، ذهب إلى البريّة وعاش في أحد القبور[٦]. ويستخدم الكاتب كلمة *penthos*[٧] [للدلالة على الندم] وهي أحد أثقل الكلمات في المفردات الروحيّة. وكان يُجرَّب ليترك مكانه ويعود إلى العالم، وتُصوَّر هذه التجربة على أنها عذابات وتمزيق على يد "شياطين حياته السابقة"؛ ويحاول أقرباؤه إقناعه بالاستسلام، ولكنه يصمد في موقف التوتر والصراع، حتى استطاع أن يحيا في سلام. ويستخدم

---

[٤] تقصد الكاتبة ما هو معروف من أن الراهب يحارب بالخدمة، أو الزواج وتكوين أسرة، أو بالتشكك في مناسبة الطريق الرهباني له. *المترجم.*

[5] Cf. *Wisdom of the Desert Fathers,* trans. Benedicta Ward, SLG Press, Oxford, 1979 §§ 31-59, pp. 7-21.

[٦] عن قبور النساك المصريين انظر *Life of St. Anthony,* 8.

[٧] الكلمة اليونانية πενθος تعني: حُزن، نوح، أسى، ندب، حداد. (راهبان دير القديس أنبا مقار، *قاموس يوناني عربي لكلمات العهد الجديد والكتابات المسيحية الأولى*، دير القديس أنبا مقار بريّة شيهيت، الطبعة الأولى ٢٠٠٣م، ص١٠٥). *المترجم.*

الكاتب النص الكتابي «مَنْ يضع نفسه يرتفع» (لوقا ١٤: ١١) ليصف حالة [الراهب].

في القصة الثالثة، يتكبّر راهب متفوّق في الفضيلة وذو قداسة حقيقيّة، ويثق بطريقة حياته وكأنها لمجده الخاص؛ وعندئذ يتراخى في تفاصيل [حياته]، حتى تلك الصعوبة الصغرى، الدائمة، للراهب، [أي] النفور من الاستيقاظ بدون إبطاء في الصباح. وأخيرًا إذ يعي الانخفاض في حماسته، وبالرغم من أنه لم يثُب حقًّا عن سقطة قلبه الحقيقيّة، فإنه ترك قلايته ومضى [داخل] البرّية، غير راضٍ [عن نفسه] وقَلِقًا. هناك يقابل مجموعة من الرهبان يعاملونه كـ"أبيهم الحقيقي" ويسألونه النُصح والعون. تحدّث الراهب معهم، معطيًا النصح عن الثبات حتى الموت، وللحال يصطدم بسخرية ورياء كلماته. ويعود مرة أخرى إلى قلايته [ليحيا] وحيدًا ويصلّي باتضاع حقيقي وجدّية، كخاطئ أمام مُخلّصه، لا كحكيم ذي قدرات خاصة. العبارة الأخيرة في القصة تكمّل صورة الرهبنة، فقد قيل له: "لقد قبل الله توبتك، ورحمك. احترس لئلا تتخدع مستقبلاً. إن الإخوة الذين أعطيتهم مشورة روحية سيأتون إليك، وسيحضرون لك هدايا. رحِّب بهم، وكُلْ معهم، وقدِّم الشكر دائمًا لله".

تستمرّ هذه الأفكار الرئيسة في قصص أخرى خلال الكتاب: البداية الأساسيّة هي التوبة، الندم، ثقب القلب بالحزن *piercing of the heart by sorrow*، الحاجة للتخلّص مما يربط [الإنسان] ويقيّده، البرّية صورة الحرّية، واقعية الصراع مع النفس، وحقيقة أن هذا [الصراع] هو أيضًا طريقة أخرى لاستفحال الأنا *ego* ما لم يكن هناك نسكٌ صادقٌ في القلب، سياق المحبة والصداقة كحلٍّ أخير للرهبنة. تصوير الشياطين أمر معتاد في هذه القصص ليحلّل ويصف التجارب [التي يتعرّض لها] الرهبان. ربما يحتاج هذا لشيء من الإيضاح. إن حقيقة الشر تُقدَّم في هذا الكتاب كشياطين، وهذا هو الحال في كل القصص [المذكورة]؛ ولكن هذا لا يجب أن يقودنا إلى أن نظن السذاجة بآباء البرّية؛ بل العكس، فقد كانوا خبراء العالم القديم، وسيكولوجيّة

الحياة الروحيّة. عندما يُذكر الشيطان، فهي ليست محاولة تبسيط لملء فراغ في القصة بعفاريت تخيليّة؛ فلقد كان الآباء غالبًا مدركين [النظرية] العلّة والمعلول *cause and effect*، فعلى سبيل المثال، المرأة في القصة الأولى هي امرأة حقيقيّة[٨]، والعذابات في الثانية هي ذكريات حقيقيّة من الماضي، والخُبز الغامض في الثالثة هو خبز حقيقي من مصدر معلوم. لكن السؤال "كيف" لم يكن ليشغل [الآباء]، ولا بآليات الأحداث؛ حتى ولو كانت معروفة، فهذه [التفاصيل] لم تكن [المحور] الذي تدور حوله القصص. إن ما تصفه [القصص] هو حالة التجربة والسقوط، الشر، الخطية، اليأس، الطرق الضيقة للتوبة والعودة، وفي هذا [السياق] صورة الشيطان لها مكان معروف، وأثر واضح ومدوٍّ أكثر من أية طريقة شرح أخرى في القصة. ربما عُرف أن امرأة حقيقيّة أغوت راهبًا، ولكن القصّة هي عن التجربة لا المرأة. إنه لأمر معقّد وشديد الصعوبة أن نستشف ما قيل في أيّة رواية، خصوصًا أن فهم بعض الصور قد فُقد[٩].

يستخدم [القديس] يوحنا الأسيوطي هذه القصص وبقية خطابه ليوجّه زائريه من اللاّواقعية *unreality* إلى القيم الحقيقيّة التي تتأتّى بالتفات القلب للّه. إنه يطلب منهم أنْ "ازرعوا السكون، ودرّبوا أنفسكم على التأمّل"، ويقول لهم: "إن الراهب الذي يفعل هذه يقف دون عائق في محضر اللّه، دون أي قلق يعوقه؛ لأن مثل هذا الإنسان يقضي حياته مع اللّه". هذه العبارة عن غاية ووسيلة الحياة النسكية، يعيد روفينوس التأكيد عليها في النص اللاتيني لـ"تاريخ الرهبان" *Historia Monachorum* حيث ترد نسخة أخرى من عظة [القديس] يوحنا الأسيوطي، فهي تتعامل مع الحياة الداخليّة بطريقة صادمة، حيث تتطرّق مباشرة إلى الاهتمام الأكبر في البرّية: الأفكار [حروب

---

[٨] انظر *تاريخ الرهبان*، ١٣، حيث يتحدّث الكاتب في قصة عن "الشيطان متنكرًا في شكل امرأة"؛ أغوت [الأب] أبلِّس، فكوى وجهها بحديد محمّى؛ وحقيقة أن "الإخوة سمعوها تصرخ في القلاّية" هي دليل كافٍ على أنها امرأة حقيقيّة.

[٩] قد لا نتفق مع الكاتبة بالضرورة في هذه الجزئية، فنحن نعلم من الكتاب المقدس أن الشيطان قد يغيّر نفسه إلى شبه ملاك نور (كورنثوس الثانية ١١: ١٤)، كما أن الكتاب والتاريخ الكنسي حافلان بقصص ظهور الكائنات الروحية في أشكال متجسدة في عالمنا المادي. *المترجم*.

الفكر]. يقول [ق.] يوحنا: "يجب أن نهتم أكبر اهتمام بمشاعرنا وأفكارنا، من خلال العمل الشاق والمطوَّل لنبذ الرغبات الداخليّة، بينما نقف أمام الله للصلاة". إن الحاجة ليست لنبذ المقتنيات فقط، بل وحتى الرغبة فيها[١٠]، تُقدَّم بوصفها العمل الأساسي للراهب. يصف [ق.] يوحنا الأنانيّة المتأصّلة [الراسخة] التي تلتفُّ حول القلب كحيّة، تحفر للأعمق باستمرار، خالقة ذاتًا كاذبة وخادعة، قلقة باستمرار وغير مستقرة. هي ذات [نظنها] خطأً ذاتنا الحقيقية؛ وهي غالية علينا، ونحن نقاوم فكرة استئصالها؛ فنغطيها - بحسب قوله - ببهجة فارغة وحزن عديم الفائدة، وهذه الفكرة يتم التأكيد عليها أيضًا في "درجات الاتضاع" *Degrees of Humility* ضمن "قوانين القديس بندكت"[١١] *The Rule of St. Benedict*. ويقف القلب القلق في مقابل بئر السلام والاستقرار الذي هو عمل روح الله، والذي ينتج وجوده هذه الفضائل النموذجيّة للبرّية: المحبّة، الوداعة، طول الاحتمال، وعدم إدانة الآخرين. ويوجّه [القديس] يوحنا أيضًا كلمات حادّة لأولئك المتمسّكين بلاواقعيّة [خداع] الغرور، ويريدون فقط أن يظهروا [بمظهر] الصلاح، عن طريق اقتباس ما قاله آخرون عن أن يباشروا عمل النسك الشاق بأنفسهم. إن العمل الأول للراهب - بحسب قوله - هو الصلاة لله، حيث بالوقوف أمام الله يمكن أن نتجرّد ممّا هو ظلمة وذات كاذبة، وتتكشف صورة الله الحقيقيّة وشبهه.

الترك: بداية الطريق

هذا العرض للطريق النُسكي للراهب يمثّل القسم الأول والأطول من "تاريخ الرهبان" *Historia Monachorum* في نسختيه اليونانيّة واللاتينيّة. وبقية [الكتاب] تستمر [في التعبير] عن نفس الفكرة الرئيسيّة؛ وتدعمها

---

[١٠] يقول القوي القديس الأنبا موسى: "محبة المقتنيات تزعج العقل، والزهد فيها يمنحه استنارة". (*بستان الرهبان*، لجنة التحرير والنشر بمطرانية بني سويف، الطبعة الرابعة، د.ت، ص ١٦٨). *المترجم*.

[١١] الأب بندكت النورسي (٤٨٠ – ٥٤٣م) هو مؤسّس الرهبنة في الغرب. وُلد في روما لعائلة من النبلاء. وقد ترهّب وأنشأ ثلاثة عشر ديرًا. وعلى الرغم من وجود حياة رهبانيّة في أوروبا منذ أن كتب لهم القديس أثناسيوس حياة أنطونيوس، إلا أن الأب بندكت هو أول من نظّم قانونًا للحياة الديريّة هناك في كتابه المشار إليه في النص. (مختصرة من موقع دائرة المعارف الكاثوليكية http://www.newadvent.org/cathen/02467b.htm). *المترجم*.

بإسهاب مصادر أخرى بوصفها الروحانيّة الأساسيّة لآباء البرّية. فليست ممارسة النُسك في حدِّ ذاتها هي الدعامة الأساسية لهذه الطريقة الحياتيّة [أي الرهبنة]، بل التوبة *metanoia* (ميطانية)، التحوّل عن رعاية الذات *ego*، استئصال مشيئة الذات خلال الحياة والتخلّي عنها في مقابل صليب المسيح. فالراهب هو الخاطئ، الضالّ العائد من كورة بعيدة، وتكون عودته أولاً ماديّة وعمليّة، وفي نهاية المطاف روحيّة. القصص التالية [في الكتاب] هي لرجال ابتعدوا عن الحياة الأسرية وخرجوا، بطريقة دراميّة إلى حد ما، من الوضع الذي كانوا يحيون فيه. باترموثيوس [درمتاوس] كان لصًّا قاتلاً؛ فليمون الزمّار كان يشترك في الاحتفالات الوثنيّة وتجاوزاتها؛ العديد من اللصوص ترهّبوا بتأثير ثيئون؛ أحد قطّاع الطرق تحوّل على يد [الأنبا] أبوللو، وآخر على يد بفنوتيوس، بينما أتى آخرون من خلفيات عادية. إن ما يُشدّد عليه [الكتاب] هو ضرورة ترك وضع [يكون الإنسان] منغمسًا فيه، وفي قصة واحدة على الأقل يوصف هذا التغيير الجذري بأنه شهادة، جهاد حقيقي حتى إلى الموت. ولكن هذا الانفصال الأولي ما هو إلا أحد أوجه التوبة بالنسبة للراهب؛ أن يبتعد جسديًّا [عن العالم] هو فقط بداية التحوّل. إن اهتمامًا مطوّلاً يُعطى هنا ـ كما في مواضعَ أخرى ـ للصراع ضد الأهواء، الآثام الداخليّة للإنسان. يقول [الأنبا] أبوللو إن الراهب يتواصل [مع الله] كخاطئ، ويتلقّى الغفران باستمرار من المسيح. جيران الرهبان قد يرونهم أنهم 'صانعو سلام'، ولكن [الرهبان] يرون أنفسهم أنهم 'مساكين بالروح'، الذين 'ينوحون'، وكانت لهم وجهة نظر مختلفة عن رؤية وجه الله.

لقد انصرف هؤلاء الرجال إذًا عن السلوك غير الاجتماعي *anti-social behavior*، وانصرفوا أيضًا عن طرق المجتمع المعتادة، لكي يقفوا أمام الله ويفحصوا قلوبهم لكي يقتربوا من حقيقة نفوسهم. هم أناس قد أدركوا أنهم ناقصون، وقد تعلّموا أن يبقوا ناقصين، وترتفع أذرعهم العارية *raw edges* دومًا نحو السموات. إن القصص الواردة في هذا النص عن الأصوام الطويلة، والسهر، والسكون، والوحدة، والتجارب، لا تُرى كغايات في حد ذاتها. [فالأنبا] أبوللو لام بشدة أولئك الذين كانوا يرتدون سلاسل حديديّة ويتركون

شعورهم مشعّثة وقال [عنهم]: "هؤلاء يستعرضون أنفسهم، ويسعون وراء مديح الناس". إن ما يقود إلى طريق التوبة الداخليّة هو فقط ما يُنصَح به هنا، وفي هذا اتفاق بين هذا النص والآداب النسكية الأخرى *literature of the desert*. إن الراهب، مثل يعقوب، يصارع ليلاً مع الله غير المدرَك، من خلال جهاد [مستمر] طول الحياة وتدريب [راجع تكوين ٣٢: ٢٢ ـ ٣٣: ١١]. وكما تذكر المقدمة، فإن الكاتب شهد، في هذا الشأن على، "حبَّهم المتّقد غيرة، ونظامهم النُسكي العظيم". إن البرّية تُمثّل دائمًا على أنها موضع الصلب: فالراهب "سيقف بجانب المصلوب في ثقة، لأن الرب المصلوب أطاع حتى الموت"[١٢].

> "سأل أخ شيخًا: 'كيف أخلُص؟'. فخلع الأخير رداءه، ومنطَق حقويه، ورفع يديه إلى السماء قائلاً: 'هكذا يجب أن يكون الراهب: متجرِّدًا من كل شيء في هذا العالم، ومصلوبًا. يصارع المصارع بقبضتيه في الحلَبة، ويقف الراهب في [حَلَبَة] الفكر، ويداه ممدودتان في شكل صليب نحو السماء، ويصرخ لله. ويقف المصارع عاريًا في الحلَبَة؛ ويقف الراهب [أمام الله] متعرِّيًا ومتجرِّدًا من كل شيء، ممسوحًا بالزيت، ومتعلِّمًا من سيده كيف يصارع. وهكذا يقودنا الله للنصرة'."[١٣]

الفرح في الطريق

وإذا كانت دموع الرهبان وآلامهم تمثّل الجزء الأساسي في هذه النصوص، فإنها مع ذلك ليست كل [النصوص]. فقلاّية الراهب تُدعى "أتون بابل"، ولكن قيل أيضًا إنه هناك "وَجَد الثلاثة فتية ابن الله"[١٤]. ويوجد في "تاريخ الرهبان" *Historia Monachorum*، كما في الآداب الرهبانيّة الأخرى، الوجه الآخر للصليب وهو القيامة. إن رسالة الرهبان ليست في عدم استحقاقهم

[12] *Sayings of the Desert Fathers,* Hyperechios, 8.
[13] *Wisdom of the Desert Fathers,* §11, p. 3.
[14] Ibid. §74, p. 24.

الشخصي، بل في أمانتهم الدائمة لله. ويقولون إن الله لا يكذب، وهو باستمرار حاضر مع الراهب، محوِّلاً حزنه إلى فرح الملكوت. ولكي تكتمل الصورة، فإن يعقوب إذ صارع الله في الظلام [الليل]، وحصلت له إعاقة دائمة، يمضي إلى أخيه الذي خانه ويقول له: «لأَنِّي رَأَيْتُ وَجْهَكَ كَمَا يُرَى وَجْهُ اللهِ» (تكوين ٣٣: ١٠). ففي هذا النص [الكتابي] صورة آدم الجديد الذي رُدَّ إلى السماء في وسط تجاربه، لا كنتيجة لها. هناك صُوَر للنور والفرح، الحياة والملائكة، وأصوات ترانيم سماوية. إن الرهبان لا يُقابلون كأناس كئيبة، منشغلين بنُسكهم الخاص، بل [كأناس] أكثر حيويّة وقُربًا بسبب [النسك]. حتى مظهرهم الخارجي يبيّن الحياة الجديدة التي بداخلهم. فبعد أربعين عامًا في الوحدة، يوصف [القديس] يوحنا الأسيوطي بأن له "وجهًا مشرقًا بشوشًا". [الأب] بِس يوصف بأنه وديع، دمث الخُلُق، وشديد الرصانة؛ لقد خرج [الأب] ثيئون ليلاً ليسقي الحيوانات البرّية؛ وفي نتريا، استقبل [الأنبا] أمونيوس القادمين إلى المجمع [أي الرهبان الجدد] باحتفال:

> "لقد دُعي المزمعون للسكن في القلالي للكنيسة للاحتفال. وبينما كانوا ما يزالون يرحّبون ببعضهم، ملأ كل أخ عباءته أو سلّته بأرغفة [خبز] أو أشياء أخرى مناسبة من قلاّيته وأحضرها لأولئك الجُدُد، حتى لا يعرف أحد أية هدايا أحضرها أي أخ".

وكان هناك شيخ اسمه ديديموس والذي قيل إنه كان رجلاً "حلو المُحيّا"، على الرغم من عادته غير المقبولة في الدوس عل العقارب بقدميه الحافيتين. راهب آخر ترك انطباعًا في الزائرين بسبب مرحه *cheerfulness* هو [الأنبا] أبوللو، وقال لهم إن السعادة ليست اختيارًا *option* بالنسبة للمسيحيين، بل فرضًا *obligation*:

> "لقد اعتاد أن يقول: 'أولئك الذين سيرثون ملكوت السموات يجب ألا يكونوا يائسين *despondent* من خلاصهم، الوثيون مكتئبون *gloomy*، واليهود ينتحبون

wail، والخطاة ينوحون *mourn*، أما البار فسيبتهج ... نحن الذين حُسبنا مستأهلين لرجاء عظيم كهذا، كيف لا نبتهج بلا انقطاع؟'."

الفكرة هي أنه واجب على أولئك الذين افتداهم المسيح أن يجعلوا الحياة الجديدة، التي وجدوها فيه، ظاهرة؛ الأسى الشخصي *personal despair* يجب ألا يُمرّر للآخرين، بل يستخدمه الراهب في علاقته باللّه المعطي الحياة والرجاء.

المحبة زاد الطريق

الوجه الآخر لهذه الحياة السماويّة هو المحبة، وخصوصًا المحبّة تجاه الإخوة. لقد ذاع صيت الرهبان بسبب ترحيبهم المحب للضيوف، وهناك أمثلة في هذا النص على هذه الضيافة، بدءًا من المقدمة فصاعدًا. ومن أكثر الأشياء المدهشة [في الكتاب] هو وصف الاستقبال الذي تلقّاه الزائرون في نتريا وكيليا [القلالي]، بحسب النسخة اللاتينية لروفينوس:

"ماذا الذي يمكنني أن أقوله لينصف إنسانيتهم، ولطفهم، ومحبتهم؛ ... لم أرَ المحبة تزدهر بكثرة هكذا في أي مكانٍ [آخر]، ولا هذا الحنو/الرأفة السريعة، ولا هذه الإنسانيّة المتلهّفة".

ولكن الزائرين انصرفوا مرة أخرى [إلى ديارهم]، والمحبّة لهم كانت محدودة [بوقت زيارتهم]، أمّا ما كان دائمًا فهو المحبة بين الرهبان. فالبرّية - كما تقول المقدمة - هي مكان [الرهبان] حيث "يتفرّقون في قلاليهم ولكن يتوحدّون بالحب". توجد هنا أمثلة عن عناية الإخوة ببعضهم البعض عند الحاجة، وحتى عن المتعة التي يجدونها في التحدّث مع بعضهم البعض، وفوق كل هذا توجد أمثلة عن تلك الفضيلة العظمى لحياة الشركة، [أي] رفض إدانة الآخرين. إن أكثر قصة ملفتة للنظر [بهذا الشأن] مذكورة في موضع آخر:

> ''أخطأ أخ في الإسقيط. وانعقد مجمع دُعي إليه الأنبا موسى لكنه رفض الذهاب. عندئذ أرسل الكاهن شخصًا ليقول له: 'تعالَ لأن الجميع ينتظرونك'، وهكذا نهض ومضى [إلى المجمع]، وأخذ إناءً مثقوبًا وملأه ماءً وحمله معه. فخرج [الرهبان] الآخرون لاستقباله وقالوا له: 'ما هذا يا أبانا؟'، فأجابهم الشيخ: '[هذه] خطاياي تجري وراء ظهري ولا أراها، واليوم جئت لأدين خطايا غيري'[15] ''.[16]

إن قابليّة [القديس] مكاريوس على أن ''يستر الخطايا التي رآها وكأنه لا يراها''[17] هي ـ بحسب هذا الكتاب ـ ثمرة وبرهان الصلاة؛ ونجد لها قصة موازية هنا في قصة أبوللونيوس الشهيد ورفضه الاستياء من سخرية فليمون.

جانب آخر من المحبة في البرّية نجده في هذا النص في قصص المتوحّدين الذين عادوا بعد سنوات طويلة ليشتركوا في حياة الشركة مع الإخوة. فعلى سبيل المثال نجد [الأب] يوحنا الذي بدأ حياته كناسك متجوِّل يسعى خلف النسكيات الشديدة ولكنه عاد ليرشد الرهبان الآخرين. [الأب] هيلّي أيضًا عاش حياة الوحدة المطلقة، ثم عاد ليحيا مع الرهبان. أور وأبوللو كلاهما بدأ حياته كمتوحّد، وكلاهما رأى رؤيا في منتصف عمره تقترح عليه العودة إلى ديره ليعين الإخوة. آخر قصة رواها [القديس] يوحنا الأسيوطي عن ناسك عاش متوحّدًا وجُرِّب كثيرًا في البرّية، تظهر لنا كيف أنه عاد أخيرًا إلى حياة الشركة لخيره الخاص بعد رؤيا قيل له فيها: ''لقد قبل الله توبتك، ورحمك. احترس لئلا تنخدع مستقبلاً. إن الإخوة الذين أعطيتهم مشورة روحيّة سيأتون إليك، وسيحضرون لك هدايا. رحِّب بهم، وكُلْ معهم، وقدِّم الشكر دائمًا لله''. إن البرّية ليست مكانًا لأعداء الإنسانية *misanthropes*، ولا الغريبي الأطوار *eccentrics*، ولا لدعاة الفرديّة *individualists*؛ بل هي ـ كما تقول

---

[15] *Sayings of the Desert Fathers,* Moses 2.

[16] وردت نفس هذه القصة بصورة أخرى، حيث قيل إن القديس موسى كان يحمل جوالاً مثقوبًا من الرمل بدل إناء الماء. وهذه النسخة معروفة أكثر من الأخرى في الأوساط القبطيّة المعاصرة ورُسمت في أيقونات القديس موسى. راجع *بستان الرهبان*، لجنة التحرير والنشر بمطرانية بني سويف، الطبعة الرابعة، د.ت، ص ٧٥. *المترجم*

[17] Ibid. Macarius 32.

مقدمة [الكاتب] ـ "مكان حيث يتفرّقون في قلالـيهم ولكن يتوحدّون بالحب". هناك محبّة هادئة بين الرهبان، واعتماديّة الفرد على الكل.

ملكوت الله: غاية الطريق

أخيرًا، هناك بُعد آخر في هذه الحياة الحزينة المُفرِحة، وهو السعي خلف "الشيء الوحيد الضروري"؛ ألا وهو فكرة الفردوس. فتوجُّه الرهبان هو نحو السماء، نحو حياة العالم الآخر. ولهذا السبب كثيرًا ما يُشار إليهم في هذا النص على أنهم ملائكة، ويحيون الحياة الملائكيّة. [أنبا] أور كان منظره "كأنه ملاك"؛ [الأب] بِس "اقتنى الحالة الملائكيّة"؛ ويوصف الرهبان في مقدمة النص بأنهم "بينما يسكنون في الأرض بهذه الطريقة، فأنهم يحيون كمواطنين حقيقيين في السماء"، إنهم ينتظرون "في توقّع مجيء المسيح". وبينما يتم التأكيد على هذا البُعد الإسخاطولوجي للحياة الرهبانيّة هنا كما في مواضعَ أخرى، فهناك جانب آخر غير مشهور ورد في هذا النص؛ وهو فكرة زيارة الفردوس الأرضي. قيل عن [الأب] باترموثيوس إنه نُقل إلى الفردوس وأحضر [من هناك] تينًا ضخمًا كدليل. وذُكرت قصة مفصّلة عن [القديس] مكاريوس [السكندري] حيث زار الفردوس الأرضي الذي صنعه الساحران المصريان المذكوران في العهد القديم، ينّيس ويمبريس[١٨]. تتعدّد القصص هنا حيث قيل إن [القديس] مكاريوس وجد فردوسًا مسوَّرًا وسط الصحراء، حيث كان رجلان قديسان [يعيشان] في حديقة. ومكث هناك عدّة أيام، يأكل ويتحدّث معهم، وأخيرًا عاد حاملاً أثمارًا من الفردوس؛ وبعد التجوال في الصحراء عاد إلى ديره وحاول أن يقنع رهبانه بالعودة معه. وتحتوي إجابة الرهبان على كل ذوق ودبلوماسيّة البرّية:

---

[١٨] يُشار إلى الفردوس الأرضي في خروج ٧: ١١ – إلى آخر الإصحاح، وتيموثاوس الثانية ٣: ٨. وردت هذه القصة في التاريخ اللوزي [اللوزياكي] فصل ١٨: "حديقة قبر ينّيس ويمبريس ... لقد بنوا المكان بحجارة [مساحتها] أربعة أقدام مربّعة. وأقاموا النُصُب هناك، وتركوا ذهبًا كثيرًا جدًّا. بل أنهم زرعوا هناك أشجارًا، لأن البقعة كانت جافة، وحفروا هناك أيضًا بئرًا".

"لو كنّا سنستمتع به في هذه الحياة، لكنا قد تلقّينا نصيبنا من الخيرات ونحن على الأرض. أيّة مكافأة كانت ستكون لنا بعدئذ حين نقف في محضر الله؟ لأنه أية فضيلة سنُكافأ عنها؟ وهكذا أقنعوا مكاريوس ألاّ يرجع."

إن تصوّر الفردوس كحديقة مملوءة من الأشياء الجيدة والمنعشة للأكل ربما تعكس أحد انشغالات الرهبان في حياة البرّية الجافة والمقيّدة. هناك بالطبع قصص أخرى عن زائرين يُدعون "ملائكة" يمدّون الرهبان بالطعام، عادة ما يوصف بأنه نوع نادر وغريب من الفاكهة، وهم في البرّية. إن التحكّم في الشهيّة لم يكن لينتهي؛ إنه التعليم [الرهباني] هو أن البطنة [النهم] كما الشهوة الجنسية هما ميدان مستمر للصراع.

إن "العين الواحدة *the single eye*"، والقلب المستريح، يُقدَّمان في هذا النص بوصفهما هدفًا وغاية الراهب؛ ربما يكون أفضل تلخيص هو ما قيل عن [الأب] بِس، الذي قيل إنه "اقتنى الحالة الملائكيّة"، وهي قمة الكمال: "لقد عاش حياة السكون الكامل، وكان هادئ الطباع ... وكان شديد التواضع، ويحسب نفسه بلا قيمة. ولقد ضغطنا عليه كثيرًا ليقول لنا كلمة تشجيع، ولكنه وافق فقط ليقول القليل عن الوداعة، بل وكان محجمًا حتى عن فعل هذا".